التوبـــــة
ما أحلي الرجوع إليه

يقول ربك عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:104]

ويقول حبيبك ﷺ :

" من تاب إلي الله قبل أن يغرغر قبل الله منه "

صحح رواه أحمد والترمذى

وعن ابن عباس رضي الله عنه :

" ما دمعت عين إلا بفضل الله ، وما دمعت عين امرىء حتى يمسح الملك قلبه ".

تنبيه المغترين الإمام السمرقندي

من هنا نبدأ

أخي وحبيبي من هنا نبدأ ، من دوحة القلوب وبستان الأرواح ، من روضة التوبة ، والسبب – وأظنه لا يخفي على مثلك – أن التوبة ضرورة للعبد ولازمة للسالكين طريق الرب في أول الطريق وفي أوسطه وفي نهايته ، فإذا أفقت من غفلتك وانتبهت من غفوتك ، ويممت وجهك شطر مولاك فإن التوبة هي زادك في أول الطريق وآخره وما بينهما ، ستحملها معك نورا في دربك ورحيقا مختوما في قلبك وعبيرا نديا يرطب جفاف حياتك حتي تصل إلي ما تريد ، فتقر عينك، ويستريح فؤادك في منازلك وجنانك العلي ، يقول شيخنا ابن القيم رحمه الله تعالي مبينا منزلة التوبة ومكانتها وفضلها : (**ومنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإن ارتحل الى منزل آخرارتحل به واستصحبه معه ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في النهاية كذلك**) [1] .

اللهم زد هذا الشيخ – وكل مشايخنا – تكريما وتعظيما ، هل قرأت أخي كلامه ؟ هل أبصرت حروفه ؟ إنها بنات النور وشقائق الروح كأنه يقول لي ولك ولكل سالك إلى ربه مستقيم علي دربه : إننا حين ننزل روضة التوبة ونطرق بابها ونحل بساحتها ، فإننا ننزل بساحة ظلها ممدود ، وماؤها مسكوب ، وأكلها دائم ، وفاكهتها هي بنت الخلود وصفها خالقها بقوله : ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:33] فدع عنك أخي الحبيب هذه المقطوعة الممنوعة بنت العدم ، وعلق أمالك بما يبقي فإن قيمة المرء ما يطلبه ، فمن النفس بماء لاينضب ، وخضرة لا تتبدل ، وملك لا ينقطع ونعيم لا ينفد ، إن روضة التوبة مفتاح الجنة وبابها ، فمن عجز اليوم عن الوصول إليها وطرق بابها والإلحاح في الطرق حتي يفتح له فيدخل سيكون عن الجنة أعجز وعن بابها أبعد ، وعن رياضها وأنهارها وقصورها وحورها وجوار ربها أبعد وأبعد ، فهلم أخي الحبيب ، ابدأ الآن

---

(1) مدارج السالكين ج1 صـ198 .دار الحديث .

معي ، وافتح أقفال النفس وأزل غشاوة العين ، وحطم قيود الفؤاد وارفع عن إذنيك أوقارها لتري وتبصر وتسمع إلى المولي يناديك لتدخل .

انظرهناك أخي الحبيب ، إن بين يديك شجرة طلح تدلت أوراقها ، خضراء تسر الناظر ، وتسعد الخاطر ، وعلي ورقة منها بخط واضح ، وقلم عبقري ساحر ، مكتوب هذه الأية : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31] ياالله ما أروعه من مشهد ، وما أجملها من آية ، انظر إليها تقر عينك ، وتدبرها يتألق قلبك ، وهذه بعض معانيها فأعرني سمعك **الآن وليس غدا:**

أولا : إن ربي وربك أخي – وهو الحكيم – خاطب بهذه الآية قوما هم خير من احتضنت الأرض أقدامهم ، ولامس الثري نعالهم بعد الأنبياء ، اصطفاهم الله تعالي لنفسه ورباهم علي عينه ، وترقوا تحت سمعه وبصره إعدادا وتربية ، حتي نضج الزرع واستوي علي سوقه ، وبلغ القوم في الربانية آفاقا لا يطار لها علي جناح ولا يسعي إليها علي قدم ، ومع كل ذلك أخي يطلب ربك منهم التوبة ، ويعلق عليها فلاحهم . ويربط بها نجاحهم وفوزهم ، ويا له من معني لطيف وسر دقيق ، يأسر اللب ويسبي القلب مع شيء من التدبر وقليل من التفكر ، بمعني أنه إذا كان ربنا جل وعلا يطلب من هذه الكواكب المضيئة في سماء التقي أن تتوب لتفلح وأن تعود إليه لتفوز وتنجح ، فنحن أخي بالتوبة أولى ، وبالإنابة أحق ، لما بيننا وبينهم في الإيمان من مسافات جعلتهم في السابقين . وجعلتنا علي الأثر لا ندري أن نلحق بهم أم نتعثر .

ثانيا: أما المعني الثاني أيها الحبيب ففي قوله تعالي : " وتوبوا " أتدري أخي أنه أمر ؟ إن مولاك يطلب منك أن تهاجر إلي رحابه . وأن تفر إلي جنابه ، وأن تحمل عصاك في يدك وتبدأ سفرك نحوه في طريق لا تقطع بالأقدام وإنما تقطع بالقلوب ، فهل تستجيب لمولاك فهو أرفق بك من نفسك ، وأبر بك من أب يغذوك وأم ترعاك ؟ أيليق بك أخي أن تسمع مولاك يدعوك ثم تعرض عنه ؟ لا والله . إن الذي

يفعل ذلك هو غيرك ، أما أنت فلا ثم لا ثم لا ، إن ما يدعوك إليه مولاك هو الخير الذي لا خير وراءه ، وتأمل لو أن طبيبا وصف لك دواء أخي الحبيب : هل تتردد في أخذه ؟ ما أظنك تفعل ، ولا يفعلها أحد ، فهل أمر ربك وولي نعمك ومالك أمرك أهون عندك من أمر الطبيب الذي يصيب ويخطيء ؟ يا لله عذرا إني أربأ بك أخي وأنت سليل الربانيين وحفيد المقربين ، من آدم ونوح إلي إبراهيم وموسي حتي عيسي ومحمد صلوات ربي عليهم ، أن تسمع وتعرض فاستجب لله ورسوله إذا دعاك لما فيه حياتك وفلاحك ، وأعرض عن الشيطان وحزبه وذريته فإنه ﴿يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:6]

ثالثاً : أما المعني الثالث ففي قوله تعالي : " **جميعاً** " إن التوبة أخي هي سلم الفلاح ومعراج الرقي ، ولن تفلح الأمة إلا بعودة جماعية إلي الله تعالي ، فلا يصح أخي ان تتوب أنت وتعود الي ربك في هجرة مباركة ، وأظل أنا في الغي سادر ، وعن الحضرة غائب ، وعن الطريق محجوب ومردود ، ولا يصح أخي أن أتوب أنا ويظل أخ لى خارج السرب مع شيطانه يغرد ، وفي ماخور الهوى يرقص وعلي أبواب اللهو وأندية الهوى يتقلب ويلعب ، لا ثم لا ، إن الكل مدعو الي التوبة الآن وليس غدا، إن أرادات الأمة لنفسها نهضة ، ولدينها رفعة ، ولرايتها عزة ولنبيها نصرة ، ولنفسها علوا بالحق وفلاحا.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31] إنها معان لطيفة أخي ، وأسرار بديعة تتجلى من خلف الحروف وتضيء من وراء الكلمات ولن تجدها إلا هنا في روضة التوبة ، فنقل معي الخطو ، بعقل متفتح ، وقلب متيقظ ، وإياك والغفلة فإنها عقبة في الطريق ، وعثرة علي الدرب فانطلق .

إنه مشهد المهاجرين إلى الله ، فهل قرأت أخي قوله تعالي علي لسان النبي الصالح :- ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت:26] ؟ والله إنه لقول يأخذ بمجامع القلب لو كان ينبض ، ويحيط بأقطار النفس إذا كانت بها حياة ، وإن أروع مشهد يمكن أن

تقع العين عليه وتدركه النفس ، هو مشهد إنسان يفر إلي الله تعالي من جحيم الهوي وحصار الشيطان وقيود النفس ، إنسان يهرب من الضلالة إلي الهدي ، ومن الحيرة والشك الي اليقين والرشد ، ومن الظلمات والتيه إلي أنوار فجر ذي ثغر باسم وأمل قادم ، إن مشهد التائب أخي يبعث في نفس الإنسان نشوة غامرة تستعصي علي الفهم ، إذا حاول المرء فهمها ، وعلى الوصف حين يحاول الإنسان وصفها ، وأظنك أخي قد رأيت أو سمعت أو قرأت عن عائد إلي ربه بعد طول غياب ، ومنيب إلى سيده بعد طول قطعيه ، ومهاجر إلى مولاه بعد أن استبد به الهم وأضناه ، فهل ترك ذلك المشهد في نفسك أثرا ؟ وهل طبع في قلبك صورة ؟ إن لهذا المشهد جمالا لا يقاوم فما هو سر هذا السحر الذي يحيط به وبرؤيته ؟ تعال أخي نضع القلم ، وندع شيخنا العلامة "**البوطي** " يرسم لنا بريشة فنان ، ويصور لنا بمداد من دم قلبه سر هذا المشهد وسحره، ليحلق بنا في آفاق من النور وسماوات من الروعة قلما تدرك أو تطال ، يقول الشيخ أطال الله بقاءه ونفع به : (إنهما أمران يبعث كل منهما في القلب نشوة غامرة تستعصي **علي الترجمة والوصف** :

أولهما : هذه الملاحقة الربانية للشاردين والضالين أن يعودوا إلي كنفه وأن يمثلوا أمام مائدة فضله وإكرامه.

الثاني : تلك الاستجابة التي تذكر بعودة الطفل آمنا مغتبطا إلى صدر أمه .

وإنك لتنظر فتجد علي وجوه هؤلاء العائدين فرق مابين أمسهم الغابر ، إذ كانت تغشاهم ظلل داكنة من شقاء الضلال والابتعاد عن حمي المولي عز وجل ، ويومهم الجديد إذ تعلو وجوههم إشراقة التوبة وسكينة الهداية وبهجة معرفة الله والتعرف إليه) [1] يا لله ! اقرأ أخي وتآمل ، وأطلق العنان لتلك المعاني الربانية لتصل إلي قلب قلبك ، وعش معها بروحك قبل أن تحرك بها لسانك ، لتنعم وتتنعم بذات الإحساس الذي يجده التائب حين يعود ، والمهاجر حين يصل ، والمسافر يرجع فيقر عينا بالإياب ، إن روعة هذا المشهد أخي لا تقف عند معانيه الظاهرة ، ولا يليق بك – وأنت من أنت –

(1) شخصيات استوقفتني : صـ20 طـ دار الفكر .

أن تقف عند الصورة دون الحقيقة ، وإنما الذي يليق بك أن تنظر في التوبة **إلي أمرين اثنين** :

الأول : لطف الله سبحانه الذى يصطفي التائبين ويختارهم لجواره ويضمهم إلي حضرته، وياله من معني ، فربك أخي هو اللطيف ، وحين يمس لطفه هؤلاء الشاردين تتبدل أحوالهم ، وتنقلب حياتهم ، وتتغير بوصلة قلوبهم في اتجاه آخر اتجاه اللطيف الذي دعاهم فأجابوا ، وناداهم فاستجابوا ، ثم تاب عليهم أيها الحبيب... فتابوا .

الثاني : ثم انظر في التوبة كذلك إلي تلك العودة المفعمة بمعاني اللقاء بعد الغياب ، والقرب بعد البعاد ، والود بعد الجفاء والصد ، وتأمل حال طفل أعادوه إلي صدر أمه بعد أن أتبعه البعد وأضناه الهجر ، هذا هو حال الربانيين حين يتوب عليهم مولاهم ، فيطمئنون بعد قلق ، ويأنسون بعد وحشة ، ويسكنون بعد تشتت واغتراب .

ولن يكتمل المشهد أخي وتبدو روعته إلا بمثال يشرح لنا : كيف عاد إلي ربه ؟ وما السبب؟ وكيف لحق بقوافل المهاجرين إلي رب العالمين ، وألقي وراءه جبالا من المعاصي ، وأكواما من الخطايا . وعمرا من اللهو واللعب ؟ ليأنس بعدها بالروح والريحان ، والنور والفرقان ، إن صاحبنا أخي ومثالنا الذى أريد ، هو الإمام الربانى الفضيل بن عياض ، أمام عصره ووحيد دهره ، شهد بذلك القاصي والداني ، حتي قال فيه محمد بن سعد : كان ثقة فاضلا نبيلا عابدا ورعا كثيرالحديث [1] ، وشهد له الإمام الزاهد الورع عبد الله بن المبارك – ومن شهد له ابن المبارك فحسبه – حيث يقول فيه : ما بقي علي ظهر الأرض عندى أفضل من الفضيل بن عياض [2] ، وقال نصر بن مغيرة البخارى : سمعت إبراهيم بن شماس يقول : رأيت أفقه الناس وأورع

---

(1) طبقات ابن سعد جـ6 صـ500 دار صادر .

(2) سير أعلام النبلاء . جـ8 صـ424 الإمام الذهبى طـ الرسالة .

الناس وأحفظ الناس : وكيعا والفضيل وابن المبارك [1]، هل رأيت أخي كيف شهد أولئك الأعلام للفضيل ؟ ولكن المفاجأة التى ستدهشك هي أن ذلك الرجل الذى شهد له الجميع بالإمامة في الورع والسبق في الصلاح والزهد، قضي شطر شبابه لصا يقطع الطريق ويستلب الناس أموالهم ، لينفقها علي متعه وأهوائه ، ويبددها فيما تمليه عليه ملاذه وشهواته ، وفى غمرة تلك الحياة الشاردة والتائهة ، لقي الفضيل فتاة فعلق بها قلبه ، وهاج من عواطفه نحوها ما صرفه عن المال وجمعه ، وعن الغني وسحره ، وأخمد العشق في نفسه نار البغي وحرارة البطش ، فلم يعد له وقت يتسع لأكثر من التفكير فيها والتخطيط للقائها والسكون إليها ، وأنسته جذوة الحب التي اشتعلت في نفسه ظلمة لياليه ، وأقصت شيئا فشيئا قسوة قلبه ورعونة نفسه ، وأسدل الحب حجابا كثيفا بينه وبين ما غبر من أيامه ولياليه ، وذات ليله – ويالها من ليلة – شرع يفكر كيف يغزو بيت محبوبته ، ويقتحم الجدران التي تفصل بينها وبينه في جنح الليل دون أن يهيج أحدا أو يثير ريبة ، ولما وقف بجوار البيت لم يعدم شيئا يتعلق به وارتقى الجدار ، وقبل أن يهوى ساقطا في الدار ، وقف يلقي السمع إلي صوت هنا أو هناك ، بحثا عن الأمن في مغامرته والسلامة في مخاطرته ، بينما هو كذلك ، إذ سمع قارئا في جوف الليل يرتل قول مولانا جل وعلا : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:16] وسأترك قلمي ثانية أخي الحبيب وأدع الأستاذ البوطى يصف لك برقة لفظه وربانية نفسه ومداد قلبه ما حدث للفضيل في تلك اللحظات الفاصلة من حياته ، يقول الشيخ ولله دره : (**كان قلب الفضيل قد تحرر في تلك الساعة من رعونات نفسه ، وتساقطت منه الأغشية التي غلفته بالقسوة تحت تاثير الحب الذي سرى في أنحائه ، فما أن طرقت سمعه هذه الكلمات الربانية الفياضة بالحب والعتب الرقيق ، حتى سرت منها شعلة إلي قلبه الذى صقله الحب ، وهذبه الوجد**

---

(1) نفس المصدر السابق .

فأضاء مصباحه المنطفىء ، وأوقد ناره الخامدة ، وإذا هو يصيح بصوت مجلجل اخترق سكون الليل من حوله ، بلي يارب لقد آن ، وتحول في اللحظة ذاتها ، فسقط في المكان الذى تسلق فيه ، وأسرع كالملدوغ لا يلوى على شيء ، ومضى يصيح مرددا: بلي يا رب لقد آن) [1] .

الله أكبر ، في تلك الليلة أخي الحبيب ، وفي هزيعها المتأخر ، تم عقد الصلح بين عبد ومولاه ، وفي ظلمات تلك الساعة طوى الفضيل تاريخا مظلما ، وصفحات سوداء ، وولد على أثرها فضيل جديد ، عابد زاهد تقى ورع اسمه : فضيل بن عياض ، فاقرأ أخي وأعد القراءة ، فإن مشهد التوبة هذا يفيض رقة ، ويقطر عذوبة ، ويملأ جوانب النفس أملا مشرقا فى غد نقى ، ومستقبل ندي ، ينضم فيه التائهون إلى الركب ويعود الشاردون إلى الدرب ، فيلحقون بالقافلة المؤمنة التي تمضي في طريقها تردد أهازيج النصر ، وتغرد بتراتيل الحب ، حتي تتم الملحمة ويكتمل البناء ، ولا تسأل أخي متي فقد سألها قوم من قبلك فأتاهم الرد الإلهي عذبا رقيقاً نديا ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء:51]

ليس في الوجود من حولك أخي أجمل من هذا المشهد : مشهد العودة ، مشهد التوبة ، مشهد الإنابة والرجوع ، الطفل الغائب إلى صدر أمه ، والعبد الشارد إلى رحاب ربه . إن توبة فضيل أخي التي قصصت عليك خبرها ، مثال واضح يبين لطف السيد بعبده حين يريد به الخير ، وتسبق له الحسنى ، إن الرب يتفضل بداية علي العبد بالتوبة فيتوب ، فإذا تاب أدركته من مولاه توبة أخري ، فنصير أمام توبة من العبد بين توبتين من الرب، وسأدع ابن القيم رحمه الله تعالي يشرح لك ذلك ، فهو الذى يملك قلما ربانيا يفصل به مادق من المعاني وما خفى من الأسرار يقول رحمه الله : (**وتوبه العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله قبلها وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة . فإنه تاب عليه أولا إذنا و توفيقا**

(1) شخصيات استوقفتني صـ25 مصدر سابق .

وإلهاما ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإثابة . قال سبحانه : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:117،118]

فاخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التى جعلتهم تائبين ، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم . فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب عليهم) [1] .

سبحانك ربي ما أعظم فضلك ، سبحانك ربي ما أوسع حلمك ، سبحانك ربى ما أقرب فرجك ، أرأيت أخي كيف يكون لطف الله تعالي بعبده ؟ إن توبة العبد سبقتها توبة ربه عليه وهى التى سماها ابن القيم رحمة ربي عليه : توبة التوفيق والإلهام والإذن ، وكأن أحدا لن يوفق إلي العودة للحضرة الإلهية إلا بإذن منه سبحانه ، الله أكبر! فإذا تاب العبد هذه التوبة لحقتها توبة من الله عليه سماها الإمام ابن القيم : توبة القبول والإثابة ، أى قبول التوبة والجزاء عليها بأجمل ما يكون الثواب.

بكل هذا ندرك أن توبة الإنسان بين توبتين من الرحمن ، فتأمل أخى فضل ربك عليك ، وسله أن يلهمك التوبة أولا والقبول وحسن الثواب آخرا إن ربي رحيم ودود .

والعبد يتوب إلي ربه مرتين : مرة في الدنيا عندما يفيق من غفلة ، ويصحو من سكرة ، وينهض من عثرة ، وتتفتح مدارك نفسه لدعوة الحق وكلمة التقوى ، هذه مرة ، أما الأخري فعندما تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ويقوم الناس لرب العالمين ، وهذه عودة للجزاء والمكافأة ، فهما إذن توبتان فطن شيخ الإسلام ابن القيم إليهما ، وراح يحدث عنهما حديثا فيه عبق الروح وعبير الريحان ونفحات اليقين ، يقول رحمه الله : (**والتوبة لها مبدأ ومنتهى ، فمبدؤها الرجوع إلي الله بسلوك صراطه المستقيم الذى نصبه لعباده ، موصلا إلى**

---

(1) مدارج السالكين . جـ1 . صـ339 .

رضوانه ، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:153] وقوله تعالى : ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:24] ونهايتها الرجوع إلي الله تعالي في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته فمن رجع إلي الله في هذه الدار بالتوبة . رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالي : ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:71] قال الإمام البغوى وغيره : يتوب إلي الله متابا : يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل عليه غيره ، فالتوبة الأولي وهي قوله تعالي ﴿وَمَن تَابَ﴾ رجوع عن الشرك ، والثانية رجوع إلي الله للجزاء والمكافأة) [1] .

أرأيت أخي ؟ إن نور اليقين يقطر علي القلوب كالندي والبرد من فضاء تلك الكلمات ، وإن القلب لينتفض لها كما ينتفض العصفور بلله القطر، فاعلم أخي أنها طريق واحدة ، أولها هنا وآخرها في الجنة ، فاعقلها أخي وافتح لها عقلك وقلبك ، فإن كنوز القوم لا ينالها إلا قلب متيقظ ، وعقل متحفز ، وأنت صاحب ذلك ، بعت لله نفسك فربح ولله بيعك ، ربح بيعك .

بعدما سمعت أخي ورأيت ، ألا تحدثك نفسك أن تلحق بالركب ، وأن تنضم إلي قوافل المهاجرين إلي رب العالمين ؟ ألم تنبعث همتك شيئا لتسرع في أثر القوم قبل أن يحال بينك وبينهم بموت عاجل أو مرض نازل أو فقر شاغل ؟ لقد آن لك أخي أن تدرك أن الذنب لا يؤذيك وحدك ، وأن شؤم المعصية لا يرتد فقط إلي نحرك، وأن عاقبة الإثم تلحق بولدك وأهلك وتؤثر علي متجمعك وأمتك ، بل إن نصرا من الله قريبا ومقدراً قد يتأخر بذنبك ، فتكون قد خنت مجاهدا يحمل لله سيفه ، وروحه علي كفه ، يغلب مرة ويغلب مرة ، يستبطيء النصر ويسأل : لماذا تأخر ؟ وأنت بذنبك السبب ولا تكاد تشعر ، فدعني أوجه إليك هذا السؤال : ألا تخاف

(1) نفس المصدر السابق . جـ1 صـ341 .

علي نفسك ؟ ألا تخشي عاقبة أمرك ؟ إن ذنبا واحدا تستهين به ولا تلقي له بالا قد يعرضك لما لا تحب ، ويحمل إليك أنباء تسوؤك ولا تسرك وأشياء تضرك ، وكنت أنت في غني عنها وسلامة منها ، فإياك – بعد اليوم – أن تستهين بذنب ، فإن إبليس إنما أهبط من منزل العز الذي كان يسكنه ، لأنه ترك سجدة واحدة أمر بها ، فتأمل هذا وتذكر كم سجدة لله تركتها ، وآبوك آدم أخرج من دار القرار ومنازل الأبرار بلقمة واحدة نهاه ربه عنها فما صبر عليها ، فتامل هذا وتذكر : كم لقمة من حرام أكلتها وفي فمك ألقيتها . وملأت جوفك بالسحت وقد نهاك عنه مولاك ، والقاتل أخي الحبيب ، حجب عن الجنة بملىء كف من دم وأنت تقتل نفسك في اليوم مائة مرة حين توردها المهالك ، وتركب بها المعاصي ، وتقتل غيرك بلدغ اللسان وسيف البهتان وسهام العيون وبطش اليد وسطوة الرجل ، فقل لى بربك : ألا تخشي أن تحجب كما حجب هذا القاتل عن دار الخلود وجنات النعيم ؟ وهذا الزانى – حفظت أخي – قتله ربه شر قتله لإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل له ، فتعفف أخي ، واحجر اليوم علي جوارحك وأنت لها مالك وعليها حاكم ، قبل أن تتحلل من سلطانك ، فتنطق رغما عنك وتقيم الحجة عليك ، قائلة :" **أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء** " في موقف تقوم فيه وحيدا ، وتبدو فيه ضعيفا ، أخي أيها المقيم علي الذنب ، المصر علي المعصية ، لقد أمر ربك بإيساع الظهر سياطا بكلمة قذف أو قطرات من مسكر ، وأنت سكران عمرك بخمر الهوي ، وشراب الشهوة ، فمتي تفيق ؟ ألا تدري أخي الحبيب أن ربك تعالي – وهو الحكيم – قد قطع يد السارق فيما يساوى ثلاثة دراهم ؟ هانت بالحرام يده فقطعت فيما لا قيمة له ، وأنت تقلب يدك ذات اليمين وذات الشمال ولا تبالي ؟ عجبا لك أخي ثم عجبا لك ، أما آن لقلبك أن يصحو من غفلته ، ولعقلك أن يفيق من سكرته ، ولهمتك أن تحلق بعيد عن الدنيا والدنايا ؟ أخي استحلفك بربك حرصا عليك وحبا لك وشفقة علي مصيرك ، قلها الآن قبل أن تحاول فتقشل ، وقبل أن تطلب فلا تجد قل : أستغفر الله . أستغفر الله . أستغفر الله .

أخي الحبيب ، إن الذي طرد إبليس من الجنة في سجدة تركها ، وأخرج آدم من جواره بلقمة أكلها ، وحجب القاتل عن الجنة فى كف دم ، وقتل الزاني شر قتلة بإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل له ، وأوسع الظهر جلدا بكلمة قذف وقطع يدا في ثلاثة دراهم ، فلا تأمن أن يحبسك في النار بمعصية واحدة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:15]

إن شر داء يصاب به المرء أخى هو : الغفلة ، فالغفلة داء يحل بالقلب فيقعد به عن كل خير ، ويقبض علي النفس فلا يدع لها همة ، ويعمى البصر فلا يعرف معروفا ، ويطمس البصائر فيعميها عن الحق ، وينزل كالوقر على الأسماع فلا يصل إليها من ألحان الإيمان صوت يوقظ القلب من غفلته ويبعث النفس من مراقدها ، وإجمالا أخى الحبيب : لا خير في الغفلة ولا فلاح لغافل ، ولهذا تقدم إليك إمام الواعظين وشمس أرباب القلوب شيخ الإسلام ابن الجوزي ونادي عليك بصوت ملؤه الحب ورحيقه الود ، وعبيره الإخلاص ، لتعلم أن الأمر جد ، وأن السفر بعيد ، وأن الزاد قليل ، وأن المصير إما جنة وإما نار . وأن المقام الدائم إما مع الأبرار وإما مع الفجار ، فاسمع إليه يقول لى ولك ويهتف بى وبك :(**يا أعجمى الفهم متى تفهم ؟ يا فرحانا بلذة عقابها جهنم ، ستدرى متى تبكى ومتى تندم، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم ، يا عاشق الدنيا كم مات بحبها متيم ، ما للفلاح علامة والله أعلم ، غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتوعده ، فيا غائبا عنا طول عمره ، أما تحذر غضبنا ؟ خالف موسى الخضر ثلاث مراحل فحل وصل العقد :"هذا فراق بيني وبينك"**) [1] .

لقد والله صدقك القول ، وأخلص لك النصح ، فدعني أنا أيضا أسال نفسى و أسألك – على قاعدة : فلينصح العصاة بعضهم بعضا – إلى متى نحن فى غفلة و الموت يحصد البرية حصدا ؟ سبحان الله ! إنها الدعاوى الكاذبة حين يفضحها الصدق، والأقوال المزخرفة حين يهتك سترها العمل السيء،ندعى نحن الاستعداد للموت

(1) المواعظ والمجالس صـ205 ابن الجوزى . مكتبة الإيمان والآية من سورة الكهف : 78

ونلبس لبوس الزاهدين و نحن أحرص الناس على حياة،و نزعم أننا أبناء الآخرة ، و قلوبنا ترتع فى الدنيا كالوحوش فى البرية،و ندعى أننا نحب الله و رسوله و حب العاجلة لم يدع فى القلب مجالا لغيرها وهذا كله جعل شقيقا البلخى يقول و كأنه ينظر إلى قلوبنا،و يكشف بأنوار بصيرته أستار الزيف التى تحيط بها و يقول : (**الناس يقولون ثلاثة أقوال و قد خالفوها بأفعالهم،يقولون : نحن عبيد الله و هم يعملون عمل الأحرار و هذا خلاف قولهم،و يقولون : إن الله كفيل بأرزاقنا و لاتطمئن قلوبهم إلا بالدنيا و جمع حطامها،و هذا أيضا خلاف قولهم،و يقولون : لا بد لنا من الموت و هم يعملون أعمال من لا يموت . و هذا أيضا خلاف قولهم**) [1] .

أتدري أخي الحبيب لماذا تخالف أفعالنا الأقوال ؟ إنها الغفلة أخي ، الغفلة التي تجعل أحدنا يقول بلسانه : اللهم إني عبدك وأفعاله ليست أفعال العبيد ولو كان عبدا لله حقا لألزمته العبودية صراطها ، ونسجت حوله خيوطها فاستقام عليها قولا وعملا ، ظاهرا وباطنا .

إنها الغفلة أخي ، الغفلة التي جعلت أحدنا يقول بلسانه : إن الرزق بيد الله ، ولم ينخ مطاياه بساحة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:58]، فراح يرتع في طلبها كوحش في فلاة ، لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال إلا إذا أمسك بتلابيبها وقبض علي حطامها ، وعض بنواجذه علي زينتها وزخرفها ، ولو كنا نؤمن حقا أن الرزق بيد الله ، لاطمأنت قلوبنا واستراحت نفوسنا في ظلال ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6] .

نعم أخي إنها الغفلة التي تجعل أحدنا يقول بلسانه : لابد من الموت ، ولم يطب له المقام ساعة في واحة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64].

إننا أخي ندعي حب الله وحب رسوله وحب الصالحين من عباده ، ولكن حب ليلي وسعدي ولبني قد ملأ نفوسنا وشغل الطريق إلي قلوبنا ، فإلي الله تعالي نشكو عذب

---

(1) مكاشفة القلوب صـ25 الإمام الغزالي . مكتبة الإيمان

حديثنا وسوء فعالنا ، إننا لو كنا ندرك حقا ونؤمن صدقا أنه لابد من الموت لاستقام حالنا ، ولكنها الغفلة أخي فمتي نفيق ؟

إن أهل النار أخي يصرخون ، ألم ينته إليك صراخهم ؟ ويستغيثون ، أتدري لماذا يستغيثون ؟ لن أجيبك ، فأنا مثلك ، أشكو ما تشكو ، وأعاني ما تعاني ، ولكن سأدع رجلا من الربانيين يجيبك ، فهو أهل ذلك ، حيث صفت روحه وسمت نفسه ، وانقشع غبار الغفلة ودخان الهوي عن قلبه فراح يحدث عن حقائق الأشياء كأنها رأي عين ، إنه الإمام ابن الجوزي فاسمع ما يقول :" **إن أكثر استغاثة أهل النار من (سوف) كانوا يقدمون علي المعصية ، ويؤخرون التوبة ، ويقولون : سوف نتوب ، فاختطفهم الموت علي شر حالة ، فألقوا في نار الجحيم** " [1] . يالله ! سوف نتوب ، وآه من سوف ، فتأمل أخي قول هذا العبد الصالح : فاختطفهم الموت علي شر حالة ، واستعذ بالله من الغفلة ، فهي التي ضربت علي آذانهم وطبقت علي قلوبهم ، فباتوا في غيهم ، وأصبحوا علي بغيهم ، مقيمين علي المعصية حتي ..... حتي ماذا ؟ حتى جاءهم الموت بغتة وهم علي ذلك ، فكانت الخيبة – نعوذ بالله منها – وكان الهلاك والسبب أخي كما تري : الغفلة ، ولأجل ذلك كانت التوبة من الغفلة هي أعلي طبقات التوبة ، هكذا جعلها الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالي فقال يشرح لي ولك طبقات التوبة : **والتائبون علي ثلاث طبقات :**

فأدناهم : التائبون من الكفر .

وأوسطهم : التائبون من المعصية .

وأعلاهم : التائبون من الغفلة[2] .

إن الغفلة أخي تغلف القلب فلا يكاد يعي أو يذكر ، وتجعل علي العين غشاوة فلا تكاد تري أو تبصر ، وتضرب علي الآذان وقرا فأنى لها أن تسمع ؟ وهذه الحال – أعيذك بالله منها – هى حال أهل النار ، فتأمل قول ربك جل وعلا يصفهم لك لتفر

---

(1) التذكرة في الوعظ . صـ108 دار ابن خلدون .

(2) نفس المصدر السابق .

منهم ومن أوصافهم فرارك من مجذوم ، وتهرب من خيالهم هروبك من أسد قاتل ووحش كاسر يقول مولاك في وصف أهل النار : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف:179] فتأمل قوله تعالي : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ واستمع إلي سيد رحمه الله تعالي في ظلاله وهو يشرحها لك ، فيمطر أذنيك زهرا وعطرا ، وقلبك روحا وريحانا وأنصت إليه يقول : **(فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة ، والأذن الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، إذا مروا بالحياة غافلين ، لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها ، فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلي استعدادتها الفطرية الهادية ، ثم يكون من ذرء جهنم يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته)** [1] .

أخي الحبيب . إن العافية في الذكر والطاعة ، والبلاء كل البلاء في اللهو والغفلة ، والشفاء في الإنابة والتوبة ، فانفض غبار الغفلة ، واطرح عنك هموم العيش ، وفارق النفس وشواغلها ، وخذ لربك خطوة ، وناده نداء الكريم ، وجاوبه جواب الكليم : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه:84] وكن علي ثقة أخي بأن مولاك كريم ، ولن تقترب منه شبرا حتي يقترب منك باعا ، ولن تقطع باتجاهه باعا ، إلا ضاعف إليك السعي فتقرب منك ذراعا ، ولن تطأ قدمك طريق التوبة إلا وجدته عز وجل يهرول نحوك ، فماذا تنتظر ؟.

إن غفلتنا أخي وآه من غفلتنا ، جعلت الصالحين يضحكون ، ولكنه والله ضحك بطعم البكاء ، سمعناه من حكيم القوم أبي الدرداء رضي الله وهو في بستان التوبة يجلس ، فاقتربت منه وقلت : يا صاحب رسول الله سمعتك تضحك ، ورأيتك مطرق الرأس مشفقا قلقا ، فماذا أضحكك ؟ فرد بصوت ملائكي كأنه من رياض الجنة

(1) في ظلال القران جـ3 صـ1401 . طـ دار الشروق .

أتي وأجاب : أضحكني ثلاث : مؤمل دينا والموت يطلبه ، وغافل ليس مغفولا عنه ، وضاحك ملئ فيه لا يدري أرضي الله عنه أم سخط ، ألقاها الحكيم هكذا في وجوهنا وتركنا في دهشتنا ثم انصرف ، فيارب ثبت قلوب عبادك أن تنهد ، واربط عليها حتي لا تنفطر ، إن أبا الدرداء يضحك ، ولكنه – كما أسلفت – ضحك من اختلط الدمع بعينيه مع الدهشة في عقله ، فأثمرا معا حسرة في نفسه ، ضحك من يرى إنسانا بخفة الفراشة وحرص الذئب يلهث ويجري ، وهو لا يدري أن الموت بنفس الحرص –أو أشد – يستقبله علي الطريق ، ضحك من يري إنسانا أثقلته حاجاته ، وأسكرته رغباته ، فنسي أن ذنبه مرصود ، وأن عمره محدود ، وربه قيوم لا تأخذه سنه ولا نوم ، ضحك من يرى إنسانا لاهيا يضحك حتي يستلقي علي قفاه ، والمسكين لا يدرى هل رضي عنه ربه فحق له أن يضحك أم سخط عليه فالبكاء به أولي والصراخ بمثلة أليق ؟ يالله... يا رب العالمين ، ما أشد غفلتنا وما أعظم المصير الذي ينتظرنا ، إن حالنا والله هو حال النملة التي حدث عنها بشر الحافي فقال (**إن في هذه الدار نملة ، تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء ، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور فأخذها والحبة ، فلا أكلت ما جمعت ، ولا ما أملت نالت**).

فهل وعيت المثل أخي وأنت اللبيب ؟ وهل التقطت الإشارة وأنت المؤمن الفطن الذي له في كل شيء أية تدل علي رجاحة عقله وعظيم فطنته ؟ إن هذه النملة هي أنا وأنت ، وكثير من أمثالنا ، نرتع في طلب الدنيا بحرص الثعلب وشراسة الذئب ، ونجمع في دئب وجد ، دون كلل أو ملل ثم ... ثم ماذا ؟ ثم يأتي الموت ، فلا يأكل المسكين منا ما جمعه ، ولا يدرك ما طلب ، بل وجد الله عنده فوفاه حسابه .

أخي هل تذكر الحسن البصري ؟ هل تذكر مجالس وعظه ؟ إنها المجالس التي لا تختلف عن رياض الجنة ، تسرح فيها النفوس ، وتحن إليها القلوب ، وتهوي إليها الأفئدة ، حيث الحكمة يرسلها فكأنما خرجت من قلب نبي والموعظة كأنما جرت علي لسان ولي ، وكلامه الذي يحي القلب ويزجر النفس ،

هذا هو الحسن أخي يعظ بصدق النائحة الثكلي لا المستأجرة ، فإذا وعظه يصرخ فينا وباختصار عجيب ، يلخص قصة الخلق وتاريخ البشر يقول مناديا : يا ابن أدم .. السكين تشحذ ، والتنور تسجر ، والكبش يعتلف [1] فنحن الكباش أخي والموت هو السكين ، والنار مصير الغافلين ، أفبعد كلام الحسن تليق بناالغفلة ؟ إن روضة التوبة لا يدخلها غافل ، فالذنب سيجرحك ، والموت سيذبحك ، والموقف بين يدي ربك سيفضحك ، والنار من وراء هذا ستنضحك ، وكل امريء حجيج نفسه .

" **اترك الذنب أو ارحل** " لافتة معلقة بين شجرتين في روضة التوبة ، وقفت أمامها أقرأ وأتدبر ، فقال صاحب لي يحاورني : اترك الذنب أو ارحل ، شرط معجز ، فللذنب سلطان ، وللمعصية أعوان ، فمن ذا يستطيع أن يترك الذنب مع عادة تقيده ، ونفس تغريه ، وشيطان يعده ويمنيه وهوى يطيح به ويلقيه ، ودنيا من خمرها تسقيه ؟ قلت : إن العاقل ينظر في المآلات ، ويتدبر العواقب ، وإني أري لك عقلا فاسمع إلي الإمام السمرقندي يقص عليك ماللذنوب من عيوب ، ثم افعل بعدها ما يليق بك ، وما يجدر بمثلك ، يقول رحمه الله تعالي :" لا تغرنك هذه الآية : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:160] فإن السيئة هي **الأخري لها عشرمن العيوب** :

أولها : أن العبد إذا عمل سيئة فقد أسخط خالقه علي نفسه .

والثاني : أنه بالذنب أسعد أحرص الخلق علي هلاكه ، وهو إبليس عدو الله وعدوه.

والثالث : أنه بالمعصية يتباعد عن أحسن المواضع وهو الجنة .

والرابع : وأنه يتقرب إلي شر البقاع والمواضع وهو جهنم .

والخامس : أنه جفا أحب شيء إليه وهو نفسه .

والسادس : أنه نجس نفسه بالمعصيه ، وقد خلقها الله تعالي طاهرة .

---

(1) حلية الأولياء جـ2 صـ 152 .

والسابع : أنه آذي أصحابه الذين لا يؤذنه ، وهم الحفظة .

والثامن : أنه أحزن حبيبه محمدا عليه الصلاه والسلام في قبره ، فأعمالنا تعرض عليه .

والتاسع : أن الأرض والسماء والزمان والمكان كل ذلك تأذي بالمعصية .

والعاشر : أنه خان الخلق أجمع ، لأنه بمعصيته يمنع القطر أن ينزل من السماء .

يالله لطفا ، أفبعد كل هذا تسأل أيها الحبيب ، والتقي اللبيب : كيف أترك الذنب ؟ بالله عليك أخي : الم يؤلمك قوله عن الذنب : أنه يؤذي النبي في قبره لأن اعمالنا تعرض عليه ؟ ألم يرق لها قلبك ؟ أترضي أن تكون سببا في هم يدخل علي الحبيب ﷺ قبره ؟ أما يكفيه تطاول أعدائه ، وعناد شانئيه ومبغضيه حتي نضم إليها بجحود وقسوة ذنوب أتباعه وتقصير أشياعه ، حبيبي يا رسول الله عذرا فإن وليك الله وسوف يكفيك ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزُّمَر:36] أخي إن كان صعبا أن تترك الذنب ، وأن تهجر بساط المعصية ، فإن ما يترتب علي الذنب أشد وأصعب ، وما يعقبه من الحرمان أدهي وأمر .

الآن أخي أقترح عليك أن تجمع آيات التوبة في موضع واحد ، وبخط يدك ، ثم اقرأها وأعد قراءتها مرة بعد مرة ، متأملا زهرها ، ومتنفسا عطرها ، ودع نفسك تنتشي بجلال سحرها ورحيق خمرها ، أما أنا فهديتي إليك زهرة منها لا ككل الزهور ، بل هي في روعتها متفردة ، وفي بديع حسنها واحدة ، فافتح قلبك قبل أذنيك ، حتي يستقر عبيرها هناك ، في أعماق القلب ودهاليز الروح ، فهذا هو مكانها الذي يليق بها ، اقرأ أيها الحبيب دعاء ربك ونداء مولاك : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر:53] يالله ! ما هذه الروعة ؟ أعد قراءتها أيها الحبيب وقطع الآية هكذا : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثم أجبني : هل اهتزت روحك ؟ هل انطبعت معانيها في

نفسك ؟ سأدع سيدا رحمه الله تعالي يمد لك يد العون بريشته المبدعة ، وقلمه المعبر ، ومعانيه الخلاقة ونفسه التواقة ، وروحه المرفرف يقول سيد : (**إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية ، كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال ، دعوتهم إلي الرجاء والأمل والثقة بعفو الله فليس بين الإنسان وقد أسرف علي نفسه ولج في الذنب وأبق عن الحمي وشرد عن الطريق ، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرطبة ، وظلالها السمحة الجميلة ، ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة ، والتوبة وحدها ، الأوبة إلي الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلي استئذان " وأنيبوا إلي ربكم وأسلموا له " ، الإنابة والإسلام والعودة إلي ظلال الطاعة وأفياء الإسلام هذا هو كل شيء ، دون طقوس ولا مراسم ، ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء ، إنه حساب مباشر بين العبد وربه وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق ، من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب ، ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب ، ومن أراد الاستسلام من العاصين فليستسلم،وليأت وليدخل،فالباب مفتوح،والفيء والظل والندى والرخاء كله وراء الباب ، ولا حاجب دونه ولا حسيب،فهيا هيا قبل فوات الأوان،هيا فالوقت غير مضمون،وقد يفصل فى الأمر وتغلق الابواب فى آية لحظة من لحظات الليل والنهار**) [1] .

فلا تتردد أخي،إن الرحمة تنتظرك،والروح والريحان والنور والإيمان،على بعد خطوات منك،ففارق الذنب خطوة،فثم الأنس والحظوة،وابتعد عن المعصية فثم الراحة،راحة القلب،راحة البدن،راحة الضمير،إن ربك أخى لا تضره معصية،ولا تنفعه طاعة،وقد نصحك بالتوبة،فلماذا تتردد ؟ ودعاك إلى الدخول إلى حظيرته،فلماذا تتأخر ؟ كم من ناصح لك قد قبلت نصحه بالتوبة ، وهو بالنصيحة غير جدير،حتى هيجت الإمام ابن الجوزى فراح يعاتبك قائلا : (**لو أن طبيبا نصرانيا عافاك عن شرب الماء البارد لأجل مرض من أمراض**

---

(1) الظلال جـ5 صـ3058. مصدر سابق .

الجسم لأطعته فى ترك ما نهاك عنه،وأنت تعلم أن الطبيب قد يكذب وقد يصدق،ويصيب ويخطىء وينصح ويغش،فما بالك لا تترك ما نهاك عنه أنصح الناصحين وأصدق القائلين ؟ لأجل مرض القلب الذى إذا لم تشف منه فأنت من أهلك الهالكين ؟) [1] .

أخى أيها المذنب - وكلنا ذلك الرجل – إذا غلبتك نفسك،وقهرك شيطانك،وصار الذنب يجرى منك مجرى الدم فى العروق . وأحاطت بك خطيئتك،فلا أرى لك عن الصوم بديلا،وإذا كان الذنب داءك،فإن الصوم دواؤك،يصد عن الذنب ويقطع الشهوة،ويفطم النفس عما تألفه،فعليك به،فقد نعته لك حبيبك ﷺ فقال لمن طلب منه النصيحة : عليك بالصوم فإنه لا مثل ، له وفى رواية لا عدل له ويشرح لك ابن قدامة رحمه الله فلسفة الصوم فيقول: (**إنه قهر لعدو الله،لأن وسيلة العدو الشهوات بالأكل والشرب ، ما دامت أرض الشهوات مخصبة فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى،وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك**) [2].وصدق والله وصدقته التجارب،فإن البطن إذا امتلأت تحركت الشهوة،وثارت الغريزة،ووجد الشيطان مسلكا آمنا إلى عقل الإنسان وقلبه ، فتكون الطامة والتجربة خير شاهد،واسمع واستمتع بما قصه عليك أحمد ابن الحوارى رحمه الله تعالى حيث قال : خرجت مع أبى سليمان الدارانى فمررنا على زرع،وإذا طائران يلتقطان الحب،فلما شبعا أراد الذكر الأنثى،فقال :(**يا أحمد انظر فيما كان،لما شبعا دعته بطنه إلى ما ترى**) [3]. إنها تجربة عملية،رآها الصالحون،ثم وضعوا لك تلك الحكمة : إذا شبعت المعدة جاعت الجوارح وهاجت الشهوات،فجرب الصوم وعليك بالصبر.

---

(1) التذكرة في الوعظ صـ36 مصدر سابق .
(2) مختصر منهاج القاصدين صـ43 طـ دار التراث .
(3) حلية الأولياء جـ9 صـ268 . مصدر سابق .

ويؤكد شيخ الإسلام ابن القيم ما مر ويزيد الحقيقة وضوحا فيقول بلسان الناصح وقلب الحريص المشفق : (**وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة ..... فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات**) [1] .

إن الصوم علاج ناجع،ودواءنافع،وشفاء عاجل،فعليك به ولا تتردد،فالصبر والجوع بعض الوقت أهون من الصبر على النار كل الوقت،وأختتم أخى هذا المشهد بلوحة من ذهب لابن الجوزى رحمه الله فحفظها فهي جديرة أن تحفظ في خزائن القلب وإنسان العين يقول رحمه الله: (**لا نقدر على التخلص من بلوى المعصية إلا بالتخلص من سجن الغفلة،ولانتخلص من الغفلة إلا بتضمير البطن – يعنى الجوع – وتفريغ القلب ومواصلة الذكر،فجوع بطنك،وارفض شغلك،واذكر ربك يعتزلك شيطانك**) [2] .

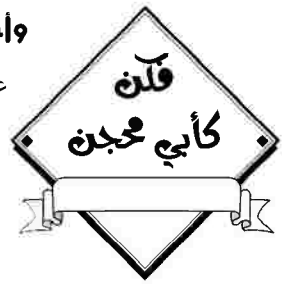

وأخيرا أخى الحبيب،اسلك درب الصالحين،والزم غرزهم،وضع القدم مكان القدم،واجعل من هديهم عونا لك على غايتك،واقتد بمن سبقك بإحسان تنل الحسنى عند ربك،واترك الذنب كما تركوا،تفتح لك مغاليق الأبواب،ويوضع لك القبول فى الأرض فلا تطرق بابا إلا فتح،ولا تطلب أمرا إلا قضى،نعم أخى الحبيب ، اهجر الذنب الآن وليس غدا،وقل له :هذا فراق بينى وبينك،وكن كأبى محجن يوم ترك الخمر لله،حيث تذكر أن ما عند الله هو خير،وأن من ترك لله شيئا عوضه الله تعالى ما هو أبقى،وإليك خبر أبى محجن لتعتبر،فأن فيه لذكر ولكن : هل من مدكر ؟

لما خرج المسلمون للقاء الفرس يوم القادسية كان معهم أبو محجن الثقفى،وهو رجل ذو خبرة فى القتال ودراية بالنزال ومع ذلك غلبته نفسه،ونزغه شيطانه فشرب

---

(1) زاد المعاد جـ2 صـ29 .

(2) التذكرة في الوعظ صـ36 . مصدر سابق .

الخمر وهى أم الخبائث،وأس البلاء وحاملة المرء إلى طينة الخبال ودرك الشقاء،فما كان من سعد ﷺ إلا أن حبسه فى سجن و جعل القيود فى قدميه والأغلال فى عنقه و يديه،ويو م اللقاء الفاصل أشرفت زوجة سعد على ميدان المعركة،وأحست أن المسلمين فى حاجة إلى جهود هذا الفارس المقيد،فتصرفت بمفردها وحلت قيده،فركب فرسا لسعد،وحمل على الفرس كليث غابات كريهه المنظرة،وأبلى بلاء حسنا،حتى هزم أعداء الله،وعاد أبو محجن بنفسه إلى السجن و وضع القيود فى قدميه والأغلال فى يديه،ورجع سعد فأخبرته زوجته،ووقف سعد على شدة بأسه وعظيم بلائه فقال :والله لا أحبسه فى الخمر أبدا،فما كان من أبى محجن إلا أن رد التحية بخير منها وقال : وأنا والله لا أشرب الخمر بعدها أبدا،وقد كان فتاب البطل توبة نصوحا،وترك خمرا فى الدنيا تذهب العقل ، طمعا فى خمر الجنة التى تزيد فى العقل،وتشفى الصدر،من أنهار جارية،يفترش المتقون شواطئها،فى جنات ونهر عند مليك مقتدر.

فكن أخى كأبى محجن واهجر الذنب وقل : وداعا أيها الذنب وداعا لا لقاء بعده،يبدل ربك سيئاتك حسنات،ويستر لك الهفوات.

بعض الناس أيها الحبيب،تجده يترك الذنب حياء من الناس،أو عجزاً عن إدراكه ، وهذا لا بأس به للمنعزل عن الله،المنقطع عن مولاه،أما أنت أخى فلك شأن آخر لأنك : ممن ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:57]

وممن : ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:90]

وممن : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة:16]

وأنت أخى من الذين قال الله فيهم : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[المعارج:27،28]

نعم أخى الحبيب أنت من هؤلاء الربانين لست موسميا فى الطاعة،ولا شيطانيا فى السلوك،ولأجل هذا لا يليق بك **أن تكون من هؤلاء :**

- ممن ترك الذنب فقط لأجل أنه يؤثر على سمعته بين الناس.
- ممن ترك الذنب فقط لأجل أن يحفظ قوته و يتقى الخبيث من الأمراض.
- ممن ترك السرقة فقط خوفا من الحارس أو فقد المنفذ إلى غايته.
- ممن ترك الذنب فقط لأنه عجز عن الوصول إلى شريك له فى الإثم.
- ممن أصر على الذنب فهو يذكره إذا أصبح،ويطلبه إذا أمسى،و لكنه فقط يتركه عجزا عن إدراكه وفقدا لأسبابه.

إنها أمثلة تغني عن الحصر،فإياك إياك وهؤلاء،وكن فقط ممن ترك الذنب لله تعالى يرجو رحمته،ويخاف مقامه تنل ثناء ربك وجزاء مولاك الذى أثنى على هذا الصنف المبارك وحدد جزاءهم حين قال : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46]،وقال كذلك : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:40،41] . يقول سيد رحمه الله :(والذى يخاف مقام ربه لايقدم على معصيته) [1] .

أتعرف أخى عاقبة المعصية ؟ أتعرف مصير المذنب المقيم على الذنب لا يرحل ؟ أتدرى حين تجرأت على الذنب على من تجرأت ؟ وفى حق من أخطات ؟ إن عاقبة الذنب وخيمة، ومصير المصر خزى وألم،وأنت كذلك قد تجرأت على مولاك فأين حرقة الندم وحمرة الخجل ، وأمارات الحياء ؟ إن حبيبك ﷺ يقول :" **الندم توبة** "[2] فإذا وفقت لترك الذنب فاجتر الندم اجترارا، وأظهر لمولاك تواضعا وانكسارا،وأره منك مذلة وخضوعا وألما وحسرة، واستعرض ذنوبك ذنبا ذنبا،صغيرها والكبير،وأظهر الإشفاق والإطراق،واسمع ما قاله حبيبك ﷺ تعرف قيمة الندم على الذنب ومنزلة التائب إذا أحزنه فعله وآلمه ذنبه يقول ﷺ : "**إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له** " [3] . ما تقول أخي فى هذا الحديث ؟ إنه يطمئنك،ويدخل الراحة على نفسك،ويفتح أبواب الأمل المشرق أمام عينك

---

(1) في ظلال القران جـ6 صـ3818 . مصدر سابق.
(2) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده عن ابن مسعود.
(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية .

حتى لا تقنط،وقبل أن يغيب عنك معناه إليك أخ له ليثبت فى ذهنك،ويرتكز فى قلبك يقول ﷺ : لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم " –أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة وإسناده حسن – بلفظ لو أخطئتم ثم قال : ثم تبتم كما فى هامش الإحياء جـ4 صـ21. أما الصالحون أخى فلله درهم،لقد أدركوا ما للندم من مكان و مقام وما للنادم من ثواب وجزاء فراحوا واحدا بعد الآخر يذكرون ويحفزون،فاسمع ما يقوله عبد الله ابن سلام :لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل،إن العبد إذا عمل ذنبا ندم عليه طرفة عين،سقط عنه أسرع من طرفة عين[1]،أيعجبك هذا ؟

نعم والله إنه لعجيب،وهذه أخى الحبيب أعجب : يقول حبيب بن ثابت :تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب **فيقول :**

أما إنى كنت منه مشفق فيغفر له [2] ، إن الندم طريق القبول،وأول خطوة نحو الوصول ، فاندم اليوم قبل أن تبحث عن الندم فلا تجده،ولعلك تسأل الآن :لماذا الندم ؟

وعلى أي شيء يكون ؟ **فيجيب الصالحون :**

- تندم على بعدك عن مولاك لحظة ركوبك الذنب وسقوطك في الإثم
- تندم على مطاوعة الشيطان وخضوعك له وإسراعك فى مرضاته .
- تندم على بعد الملائكة عنك ونفورهم منك حال ملابسة الذنب .
- تندم على ما ضاع من عمرك فى معصية ربك .

تندم على كل ذلك،واحمد ربك الذى منحك فسحة الأمل لتستدرك ما بدر منك،وتغسل بالدمع ما كان فى زمن الغواية والهوى،واسمع شيخك ابن الجوزى رحمه الله وهو يهتف بك : **(ويحك ، اغسل العثرة بالعبرة،وادفع الحوبة – الإثم – بالتوبة،ما دام فى الوقت مهلة،وفى زمن السلامة فسحة،قبل أن ترى أن السمع والبصر قد كلا،وتقول : " رب ارجعون " فيقال "كلا"،قبل أن يكون دمع الأسى من جفن الأسى منهلا ويقال: هلا كان هذا قبل هذا هلا)** .

---

(1) إحياء علوم الدين جـ3 . صـ23 . الإمام الغزالي .

(2) المواعظ والمجالس. صـ181 . مصدر سابق .

ثم اسكب أخى ماء عينك،وليكن منبعه الفؤاد،ومصبه فى الجفون وعلى الخدود،واغسل به ما لوثته الذنوب،وأرسل الدمع مدرارا يطفىء ببرده نيران الخطايا وينزل على الجراح بردا وسلاما،ليعيد البكاء من خشية الله تعالى إلى القلب ما فارقه من الأمن فى ظلال الطاعة،وما فاته من السكينة والأنس فى رحاب المولى عز وجل،فابك على خطيئتك،فلعل دمعة تحلق بك إلى العلى والدرجات بعدما نزلت بك الذنوب إلى الحضيض والدركات،ابك على ذنبك لعل البكاء اليوم يرد عنك لهب النيران غدا،نعم أخى ابك لتصبح من أهل هذه البشارة يقول حبيبك ﷺ : **"عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله،وعين باتت تحرس فى سبيل الله"**،وصدق الحبيب حين يقول لكننا أخى لظروف نعرفها فاتتنا الحراسة فى سبيل الله فلا سيف نحمله،ولا رباط نحميه ولا خيل نعدها فإن لاحت لنا نجاة ففى دمعة ندم على ذنب مضى أو خفقة قلب من خشية الله،فإن فاتتنا الحراسة فلا يجوز أن تفوتنا الأخرى فإنها والله غالية،لا تشترى بمال،ولاتنال بجاه وإنما هى عطاء الله لمن يشاء،يقول ابن عمر مبينا منزلة هذه الدمعة التى لا نقدرها حق قدرها : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار،فرحم الله العبد الصالح الورع الزاهد العالم الفقيه ابن عمر،لقد أدرك قيمة الدمعة وفضلها فأخلص ونصح،ونحن اليوم مساكين فلا درهم نتصدق به ولا دينار،أفلا نتصدق بدمعة نعتق بها رقبة،ونتجاوز بها عقبة ونقطع بها المفازات فى سيرنا إلى الله تعالى والجنة ؟

وليس أعجب من قول ابن عمر سوى فعل محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى،فقد كان إذا أسعفه قلبه بدمعة،وفاضت عينه بقطرة،وجرى العطر الحلال من بين جفونه،يمسح بمائها وجهه ولحيته ويقول : بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع [1]،ويا الله ما أروعه،وما أحلى منطقه لقد رقت

(1) الإحياء جـ3 صـ163.

قلوب القوم فجرت دموعهم،وقست قلوبنا – وإلى الله المشتكى- فقحطت أجفاننا ، فابك أخي أو تباكى،كما كان يفعل الصالحون حتى تغرق الذنوب ببحر الدموع،فتأتى العبرة على العثرة،وتمحوا التوبة الحوبة،فإنه لاخير فى عين لا يفيض ماؤها ولا تجرى دموعها وخاصة حين تكون عينى أو عينك فأنت بنفسك أعلم وبعثراتها أدرى،وانظر ما يقوله ثابت البنانى رحمه الله،تابعى جليل اشتكى عينه،فقال له الطبيب : اضمن لى خصلة تبرأ عينك،فقال ثابت : وماهى ؟ فقال الطبيب : لاتبك،فقال ثابت : وما خير فى عين لا تبكى ؟ [1] ومن أجل هذا بكى الصالحون حتى ذهب البكاء بعيونهم،بكوا ندما،وبكوا خوفا،وبكوا شوقا فهم في كل أحوالهم يبكون،ويطلبون بالدمع رضا رب قريب،ويبتغون بالندم حرق ذنوب لا يعلمها إلا الله،جاء فى تاريخ بغداد عن الحسن بن عرفة العبدى قال : رأيت يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينين،ثم رأيته بعين واحدة،ثم رأيته وقد ذهبت عيناه،فقلت له : يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان ؟ قال :ذهب بهما بكاء الأسحار،[2].ذهب البكاء فى السحر بعينيه،ونحن لا نبكى،وإذا بكينا فلدنيا رحلت أو جاه سقط،أو مال قل،أوولد قبض،هذا ما يبكينا اليوم ، أما بكاء الصالحين فكان فقط على ذنب فرط،أو معصية وقعت،أو خوفا من النار،أو شوقا الى الجنة ، وكل يغنى على ليلاه .

إن البكاء على الذنب يغسل الذنب ، واسمع ما قاله مالك بن دينار رحمه الله : البكاء على الخطيئة يحط الخطيئة كما تحط الريح الورق اليابس،فإذا كانت خطيئتك قد تمددت،وطالت فروعها و أورقت،فاجعل بكاءك في الأسحار ريحا تدمر الأوزار وتحط الأغلال،وتضع عنك الآصار. واسمع إلى يزيد الرقاشي وهو يحفزك ويحثك ويستثير دمعك قائلا : بلغنى أنه من بكى على ذنب من ذنوبه نسى حافظاه ذلك الذنب [3] . فابك أخي رب دمعة يذهل بها الحفظة عن ذنبك،وينسون عيبك،ويبقى أمرك بعدها بين يدى ربك ، وربك سبحانه لطيف لما يشاء .

---

(1) حلية الأولياء. جـ2 صـ 323.

(2) تاريخ بغداد : جـ14 صـ341.

(3) ذم الهوي . صـ178 ابن الجوزي.

إن الندم وحسرته،والخضوع وكسرته هو وقود التوبة وحطبها. وعلى مقدار الندم وشدته يكون الصدق فى التوبة والعزم فى الإنابة،فاجعل من **" والمستغفرين بالأسحار "** حاديا لك فى سيرك إلى العزيز الغفار،فإن مجانيق الليل،وسهام الأسحار لاتخطىء الإصابة،ولا تفارقها الإجابة،فإذا رزقت اليوم عينا جارية فالجزاء غدا عين جارية فى الجنة،بفضل صاحب الفضل والمنة،واسمع الى شيخ الإسلام **ابن الجوزى** وهو يثير فيك كوامن الشوق لتكون فى الليل من التوابين،و فى الأسحار من المستغفرين،وعند غفلات الناس من الأوّابين،يقول رحمه الله : (أما تشتاق أن تكون من قوم طالما أطالوا القيام باليل،وتجرى دموعهم جرى السيل،تستبق فى صحراء الخدود كالخيل،وإنما يكال للعبد على قدر الليل،فإذا دخلوا الجنة فلكل عين جارية . ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾[الغاشية:12] .

فقم أخي المذنب فى جوف الليل،وناد ربك فى ظلمة السحر،وارفع صوتك واهتف مع عبد كثرت خطاياه وأثقلته ذنوبه فقام ينادى :

يا رب إن ذنوبى اليوم قد كثرت فما أطيق لها حصرا ولا عددا .
وليس لى بعذاب النار من قبـــل ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا.
فانظـــر إلهـــي إلى ذلى ومسكنتى ولا تذقنى حرا للجحيم غدا.

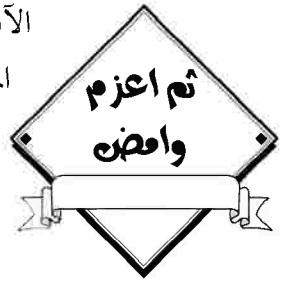

الآن أخى بعد أن تركت الذنب وراء ظهرك،وودعت أيام المعاصى ولياليها وداعا لا لقاء بعده،فقد آن لك أن تجعل منها ومن ذكراها المؤلمة وقودا يدفعك بعيدا إلى أفق الصالحين،وأن تجعل من حرارة الدمع وحسرة الندم زادا يبلغك رياض المتقين ، فإذا رزقت هذا العزم فاعلم أنك على الطريق تمضي ، وفوق الدرب تسير ، ونحو الغاية تخطو بقدم واثقة ، فالوصول بإذن الله قريب ، فهنيئا لك من قبل وهنيئا لك من بعد ، ولم يبق لك أخي الحبيب إلا أن تشحذ همتك وتستحضر إرادتك وتجمع همك وتستجمع عزمك،ثم انظر إلى غدك نظرة

أمل،سائلا مولاك أن يحفظك من شر نفسك ووسوسة شيطانك ، وأن يكون الغد نقيا كأمواج البحر لا تلوثه خطيئة ولا تعكر صفوه معصية،وهذا العزم أخي يحتاج إلى همة عالية،وعقل يقظ ونفس تواقة،ورغبة أكيدة في طي صفحة السيئات وبسط صفحة الحسنات،والسعي الجاد لطلب الدرجات،من أجل أن يرضى عنك مولاك وأن تسعد بصحبة نبيك ومصطفاك ﷺ حيث الفردوس الأعلى مسكنك،وعرش الرحمن ظلتك، وأبو بكر وعمر جيرانك،وأئمة الهدى إخوانك،والحور الحسان زوجاتك ، والولدان خدامك،فإياك أن تبيع هذا كله بثمن بخس،وتلتفت إلى الخلف،أو تنقلب على عقبيك،فإنه لا يليق بك بعد أن اتخذت لك مكانا بين الصالحين،وبدأت السير في رحاب أهل التقى .

أخي الحبيب : إن العزم عقد وعهد بينك وبين ربك،فإذا عقدت عقدا،أو عاهدت عهدا،فأوف بعهدك،واجعل مادة العقد أن تودع المعصية وأهلها،وأن تفارق أسبابها وتهجر أرضها،فإنها أرض سوء ، إلى أرض يسكنها أهل الله وخاصته،أهل طاعته ورضوانه،فإنهم قوم يعبدون الله ولا ينقطعون،ويسبحونه لا يفترون،ثم أشهد ربك على هذا العقد،وأره من نفسك الوفاء والصدق ،وقل : يا مولاي إني نادم على عمري الضائع،ولبالي الخوالي وعازم على ضدها،فإذا صدقت مع ربك صدق معك وأعانك،وحفظك وعصمك،فمدار الأمر أخي وقرة عيني،على العزم أولا،والصدق ثانيا وتأمل حال الصالحين حين يعزمون كيف يصدقون،مر مالك بن دينار بالسوق فرأى تينا فتاقت نفسه إليه ولم يكن يملك ثمنه،فطلب من البائع أن يؤخره فرفض ، فعرض على البائع أن يرهن حذاءه،فرفض ثانية،فانصرف مالك دون أن يشتري،وأقبل الناس على البائع وأخبروه أن المشتري ذاك هو مالك بن دينار الإمام الورع والتقي النقي،فاستحى البائع أن يرد إماما يعلم الناس الخير،فبعث عربة التين كلها مع غلام له وقال : إن قبلها منك فأنت حر لوجه الله،فأسرع الغلام بالعربة ممنيا نفسه بالحرية حيث لم يتصور أن أحدا يمكن أن يرد مثل هذا العطاء،فلما دخل الغلام على الإمام قص عليه الخبر ودفع إليه العربة بما عليها،فقال له مالك : قل لسيدك إن مالك لا يأكل التين بالدين،وإن مالك حرم على نفسه التين إلى يوم الدين . وهنا

أسقط فى يد الغلام وأخذ يتوسل لمالك قائلا :يا سيدى خذها فإن فيها عتقى ويرد عليه مالك : وإن فيها رقى .

أرأيت أيها الحبيب هذا العزم ؟ إنه عزم الرجال،تزول الجبال ولا يزول،وتتبدل السموات والأرض ولا يتبدل،به يذوب الشيطان ويخنس،وتجف بحار الخطيئة،ويفر الذنب مدحورا مهزوما،لقد رأى مالك أن شهوته أذلته وأن بطنه أهانته،وهذا في شيء حلال أقبلت نفسه عليه،ومالت مجرد الميل إليه،فما كان منه إلا أن نوى الفراق وعزم عزم الرجال على الطلاق،فحرم أكل التين لا يوما أو يومين ولا شهرا أو شهرين بل إلى يوم الدين فلله عزم الصالحين.

أخى الحبيب : إن الذنب لا يليق بك،فإنه يحط من شأنك ويزرى بك،به يغضب ربك ويفرح شيطانك،ويحزن إخوانك،ويتأخر النصر عن دعوتك وأمتك،وقد جعل الله لك فى الحلال متسعا،وفى الطيب المباح خصبا ومرتعا،أفتعجز بعدها أن ترعى فى الحلال وتنأى بنفسك وجوارحك عن الحرام ؟

نحن أخي الحبيب لسنا ملائكة،ولسنا كذلك شياطين،وإنما نحن خلق وسط بينهما من تراب وطين،فينا أشواق الصعود وصلاحيات النهوض التى تحملنا إلى آفاق الملائكة،وفينا كذلك وسوس السقوط وأسباب الهبوط إلى حمأ الطين ودرك الشياطين،ومن ثم فحقك أن تقول :

إنى أتوب مخلصا وأرجع نادما،وأعزم صادقا ورغم كل هذا لا ألبث أن أعود،نعم من حقك أخي أن تقول : إنى أستقيم على الصراط حينا وأجاهد النفس صابرا،وأقاوم الشيطان متجلدا،ثم لا ألبس تحت ضغط الهوى،وشهوة النفس وشرك الشيطان أن أنحرف . نعم أخى من حقك أن تقول : إنى أجتهد وأجاهد وأصبر وأصابر فأترك الذنب دهرا ثم لا ألبث حتى أعود إليه قهرا،فلئن قلت ذلك فمن حقى أيضا أن أقول : كلنا يا أخي، ذلك الرجل وإنها والله الحرب الدائرة بيننا وبين أعدائنا،إبليس والدنيا والنفس والهوى،إنها معركة دائرة ودائمة والأيام دول،ينتصر العدو مرة وننتصر نحن مرة،والنكتة هنا أن النصر للمؤمنين،والعاقبة للمتقين مولانا

جل فى علاه يقول : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:173] وللإمام الغزالى رحمه الله كلام تقر به النفوس القلقة،ويسكن إليه خفاق بين الضلوع لا يكاد يحدث توبة إلا ويستقبل ذنبا يقول رحمه الله : **(فإن ثبت ثم نقضت التوبة وعدت إلى الذنب ثانيا،فعد إلى التوبة مبادراً،وقل لنفسك لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة،وكذلك ثالثا ورابعا،وكما اتخذت الذنب والعودة إليه حرفة فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة . فلا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب،ولا تيأس،ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دلالة الخير)**.

ما أجمل هذا الكلام !!!!! وما أروعه،وما أصدق وأعمق رؤيته ونظرته،تأمل أخي قوله : وكما اتخذت الذنب والعودة إليه حرفة،فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة . اجعل هذا الكلام في مركز تفكيرك وبؤرة شعورك،واجعل التوبة حرفتك في خلوتك و جلوتك،في إقبالك وإدبارك،في سواد ليلك وبياض نهارك،واحذر أن تغفل عنها،وتعلم الاستغفار،فإنه يطهر الأجواء،ويغسل الأدران،وينظف ما لوثته الذنوب،يقول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى في قول الله عز وجل : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:25]يقول : نزلت في الرجل بذنب ثم يتوب ويذنب ثم يتوب [1] . ويقول طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد،ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين [2] .

وتأمل أخي كذلك قول الإمام الغزالي : ولا تيأس،ولا يمنعك الشيطان من التوبة . وهذا غاية في اللطف،فتأمله وتدبره،وذلك إن أحدنا إذا أسرف على نفسه،نفث الشيطان في روعه إنه لا توبة لك فقد فعلت وفعلت،وعصيت فأسرفت،فإن تبت لن يقبل منك ، ومراد إبليس أن تيأس من روح الله،وتقنط من رحمته،فإياك أن تنصت لوسوسته وأن تستسلم لنفثه وهمزه،مهما كان منك،فباب ربك مفتوح لا يغلق،ورحمته سابقة وسابغة،أفتظن أيها الغر أنها تضيق بك مهما كان منك ؟ أخي الحبيب إن الله عز وجل لما لعن إبليس،سأله إبليس النظرة،فأنظره إلى يو القيامة،فقال : وعزتك لا

(1 - 2) إحياء علوم الدين جـ1 صـ22 . مصدر سابق.

خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح،فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجبت عنهم التوبة ما دامت الروح فيهم،وفي رواية : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني [1] .

لا تندهش أيها الحبيب ولا تتعجب فللذنوب فعلا فوائد ، فإن الذنب إذا وقع منك فقد صادف أهله ، وإن قبل مولاك توبتك فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، فقد قدر الله عليك الذنب – وعلى بني جنسك – وجعل في الذنب،كما يقول ابن رجب – **فائدتين عظيمتين** :

الأولى : اعتراف المذنبين بذنوبهم،وبتقصيرهم في حق مولاهم،وتنكيث رؤوس عجبهم،وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات،وإن كثير الطاعات يوجب لصاحبه العجب كما قال الحسن رضي الله عنه : لو أن ابن آدم كلما قال أصاب،وكلما عمل أحسن أوشك أن يجن من العجب،وهذا معنى عميق ودقيق أخي،فذنب تفتقر به وتنكسر بسببه خير من طاعة تذل بها وتثني عطفك تيها وغرورا بسببها،وأنين المذنبين أحب إلى الله – كما في حكم ابن عطاء الله – من زجل المسبحين،فأنين المذنبين زانه الفقر والذل والانكسار وزجل المسبحين شانه العجب والافتخار.

الثانية : حصول المغفرة والعفو من الله تعالى،فإنه سبحانه يحب أن يغفر،ومن أسمائه الحسنى الغفار والعفو والتواب،فلو عصم عباده من الذنب فعلى من يتوب وعمن يعفو،ولمن يغفر ؟

قال أبو الجلد : دعا رجل من العابدين ربه فقال : اللهم أصلحني صلاحا لا فساد بعده،فأوحى الله إليه : إن عبادي المؤمنين كلهم يسألوني مثل ما سألت،فإن أصلحت عبادي كلهم فعلى من أتفضل وعلى من أجود بمغفرتي ؟ [2] وكان بعض السلف يقول : لو أعلم أحب الأعمال إلى الله لجاهدت نفسي فيها . فرأى في منامه قائلا يقول : إنك

---

(1) نفس المصدر .

(2) لطائف المعارف صـ57 ابن رجب.

تريد مالا يكون،إن الله يحب أن يغفر[1].

فاجتهد أيها الحبيب في التوبة ، واصدق مع مولاك العزم ، ولن يهلك مع سعة عفو الله وسابغ رحمته وعظيم مغفرته إلا هالك ، ونعوذ بالله من الهلاك وأسبابه.

أنت الآن أخي قد وفقك مولاك لتوبة،وأجرى على خديك من بحار الندم دمعة،ورزقك من العزم والإرادة ما يبلغ بك الغاية ، ويقطع بك الطريق حتى النهاية،ومع كل ذلك تبقى في حاجة ماسة إلى ما يعينك على الثبات،ويحملك على المداومة،وهو ما سأذكرك به الآن قبل أن يدركنا الوقت ونغادر هذه الروضة المباركة إلى غيرها،فإليك هذه الكنوز ، ضمها إلى صدرك وافتح لها قلبك،وعض عليها بالنواجذ، **فهي لك خير صاحب وعلى الحق خير معين:**

فعليك به فلن يهلك مع الاستغفار إلا هالك،يقول مولاك عز وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:135] .

يقول **ابن مسعود** ﷺ : هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها،ووالله إنها لكذلك ، وإن ابن أم عبد لصادق ما كذب فيما قال وما بلغ وقيل للحسن : أما يستحي أحد من ربه،يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود ؟ فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه،فلا تملوا من الاستغفار . فإياك أن تضع سلاحك،وترفع الراية البيضاء وتستسلم للشيطان،وإياك أن تقعد عن الاستغفار .

إن صحبة اللئيم تعدي،فاحذر مخالطة الأشرار،وتذكر حامل المسك ونافخ الكير،وتخير من تجالس،فصاحبك ساحبك لا محالة،إما إلا فوزك وإما إلى حتفك ، ولك في خبر الذي قتل مائة نفس ما يدلك على تأثير أهل الشر فيمن يخالطهم،فقد دله العالم على

(1) نفس المصدر .

أرض أخرى،فيها للحق جنود،وللخير رجال،وعلى الطاعة أعوان،ليعيش بينهم بعيدا عن أرضه فإنها أرض سوء،وعن قومه فإنهم أهل فساد وفجور.

ولا غناء لك عنهم،فهم وحدهم يذكرونك إذا نسيت و يعينوك إذا ذكرت،وينهضون بك إذا قعدت،ويحلقون بك بعيدا في أفاق الطاعة حين يضعف جناحك عن حملك،واقرأ أخي خطاب الصالحين إليك،يعتبون عليك أن هجرت أهل الخير : (**فيا من أبعدته عنهم الذنوب وأخرجته من بينهم العيوب،إن لم يكن وصل فمواصلة،وإن لم يكن جميل فمجاملة، تشبه بهم إن لم تكن منهم،فإنه لما أحيا الله عزيرا أحيا معه حماره،ولما بعث أهل الكهف بعث معهم كلبهم**) [1] وتلك أخي بركة أهل الصلاح وكرامة أهل التقوى ، فهم القوم لا يشقى لهم جليس.

وتلك أخي وصية حبيبك ﷺ فإذا أحدثت سيئة،فأحدث لها توبة،السر بالسر والعلانية بالعلانية،فأتبع الذنب بتوبة واغسل العثرة بعبرة،واتبع سبيل المضادة، وعالج المرض بضده،والسيئة بضرتها،فعالج سماع الألحان بالاستماع للقرآن،وعالج النظر إلى الحرام بالنظر في آيات ذي الفضل والإنعام،وعالج الخوض في أوحال الذنوب بالسعي في طاعة علام الغيوب، وهكذا تكون أخي،وأتبع السيئة الحسنة تمحها فإن الحسنات يذهبن السيئات .

وأخيرا أخي نصيحتي لك ووصيتي إليك : علق رجاءك بأستار عفوه فهو العفو و تطلع بقلبك إلى سعة رحمته، وخض بقدميك في لجة لطفه،فهو اللطيف، وتأمل معى هذا الحوار الذى يفيض رحمة ويذوب لطفا بين

(1) المواعظ والمجالس صـ25 ابن الجوزي . مصدر سابق .

العبد والرب حيث ذكر **ابن الجوزى** فى المواعظ والمجالس[1]أن الحسن بن شمعون قال : إذا قال العبد : إلهي عصيت . يقول الله تعالى : عبدى وأنا رأيت . فإذا قال العبد : إلهى بالفضول نطقت. يقول الله عز وجل : عبدى وأنا سمعت. فإذا قال العبد : إلهى إلى الحرام نظرت. يقول الله تعالى : عبدى وأنا شهدت . فإذا قال العبد : إلهى ندمت . يقول الله عز وجل : عبدى وأنا علمت. فإذا قال العبد : إلهى أسرفت . يقول الله عز وجل :عبدى وأنا عفوت. فإذا قال العبد :إلهى تبت .يقول الله عز وجل : عبدى وأنا قبلت .

فأقبل أخى على ربك معترفاً بذنبك ، وابك على خطيئتك،فان ربك يحب أنين المذنبن،وتضرع المخبتين،وهمس المستغفرين،فأره من نفسك خيرا،يفتح لك من أبواب الفضل مالا يعلمه إلا هو،ويرد عنك شر كل ذى شر هو آخذ بناصيته،ويدفع عنك حر عذابه يوم يبعث عباده .

والآن أخى هل تقبل دعوتي هذه للقاء أحد التائبين في وقفة لا بد منها ؟ إن رؤية التائبين ترقق القلوب،وتهذب النفس،ولله در عمر ما كان أصدقه وأحكمه يوم قال : جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة" [2] وصاحبنا الآن أخي هو عتبة الغلام،رجل من الصالحين وعلم من أعلام الزهد،وإمام من أئمة التقى،والغلام لقبه،فقد كان يخف إلى الطاعة ويسارع في الخيرات وينشط في العبادة نشاط الغلمان في اللعب،فلقب بالغلام،وقد بدأ حياته في غفلة حتى اشتهر بين أهل الفسق،وذاع صيته في نوادي الخمر و النساء،فلما أذن له ربه أن يرى النور بعد الظلمة،وأن يلمح الفجر بعد العتمة،مر على مجلس للحسن البصري وهو يعظ الناس في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:16] فوعظ الشيخ في تفسيرها وعظا رقيقا بليغا،وجلت له القلوب،وفاضت بسببه العيون،فقام عتبة من بينهم فقال : يا تقي المؤمنين : أيقبل الله تعالى فاجرا مثلي إذا

(1) صـ 97.

(2) الإحياء جـ4 صـ23. مصدر سابق .

تاب ؟ فقال الشيخ : نعم يقبل الله توبتك،ويقيل عثرتك ويرفع عنك إصرك،ويضع عنك وزرك،فلما سمع عتبة هذا الكلام،اصفر لونه،وارتعدت فرائصه،وصاح صيحة،وخر مغشيا عليه،فلما أفاق دنا منه الحسن وقال له هذه الأبيات :

أيا شابا لرب الأرض عاصـي	**أتدري ما جزاء ذوي المعاصـي ؟**
سعير للعصاة لها زفيـــــر	**وغيظ يوم يؤخذ بالنواصـــي**
فإن تصبر على النيران فاعصـه	**وإلا كن من العصيان قاصـــي**
وفيم ؟ وقد كسبت من الخطايا	**وهنت النفس فاجهد في الخلاص**

فصاح صيحة غلبته،فخر مغشيا عليه،فلما أفاق قال للشيخ : هل يقبل الرب الرحيم توبة العبد اللئيم ؟ فقال الشيخ : وهل يقبل توبة العبد الجافي إلا الرب المعافي ؟ . فرفع عتبة يده ودعا بثلاث دعوات فقال : إلهي إن كنت قبلت توبتي وغفرت ذنوبي فأكرمني بالحفظ والفهم حتى أحفظ كل ما سمعت من القرآن والعلم ، إلهي أكرمني بحسن الصوت حتى إن كل من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه إن كان قاسي القلب،إلهي أكرمني بالرزق الحلال وارزقني من حيث لا أحتسب . فلما علم الله تعالى صدق عزمه وصحة توبته،استجاب جميع دعائه،فزاد فهمه وحفظه،وكان إذا قرأ القرآن تاب كل من سمع قراءته،وكان يعود إلى بيته فيجد قصعة من المرق ورغيفين لا يدري من أين أتت ، وظل على هذه الحال حتى فارق الدنيا [1].

ونترك عتبة في رياض التوبة يتقلب،لنسأل قبل أن نغادر : لماذا نتوب ؟،ونقلب الطرف فإذا الجواب ظاهر حولنا على ورق الأشجار وجذوع النخل فرحنا نقرأ :

- نتوب لأن الله تعالى أمر الجميع بالتوبة،الرجال والنساء ، الشباب والشيوخ،الصالح والطالح،الحر والعبد،ولم يستثن أحدا فقال : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31] .

(1) أنظر : مكاشفة القلوب صـ31 . الإمام الغزالي . مكتبة الإيمان – ببعض التصرف .

- نتوب لأن حق مولانا عظيم،ونعمه جليلة،ونحن ضعاف عن ذكرها،عاجزون عن شكرها،وبالتوبة يجبر الله تعالى الكسور ويعفو عن التقصير .
- نتوب لنغيظ العدو ونخسأ اللئيم،ونخنس الشيطان،فإن العبد يذنب الذنب فيندم عليه حتى يدخل به الجنة،فيزداد حقد اللعين وغيظه،فيقول : ليتني لم أوقعه في الذنب .
- نتوب لأن التوبة رسول الخير،تزيل الهم وتطرد الغم،وتدفع النقم،وتسهل الصعب،وتوسع الرزق وتملأ النفس سكينة والقلب حياة،وتفيض على الروح رضا وطمأنينة .
- نتوب لأن الناس قسمان : تائب وظالم ولا ثالث لهما قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجُرات:11] .

فتب الآن أخي الحبيب،وحلق في رياض التائبين،فلا يليق بمثلك أن يكون أبدا مع الظالمين .

- نتوب لأن الميزان سينصب والأعمال ستعرض،والعدل سيقام،﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:47] ولن يستقيم لك ميزان إلا بتوبة،تجب السيئات،وتمحو الزلات،وترفع الدرجات،ويستقيم بها الميزان .
- نتوب لأن التائب حبيب الرحمن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222] إنه سبحانه يحب التوابين فتب تكن منهم،ويحب المتطهرين فتطهر من الذنب تكن منهم،لتضع الملائكة على صدرك وسام الحب،حين يشيرون إليك بالبنان،ويهتفون باللسان : هذا حبيب الرحمن .
- وأخيرا أخي نتوب ليفرح الرب،وتسعد الملائكة،ويغتاظ العدو،ويخسأ الشيطان،ويخنس حزبه وأعوانه،فالمولى الكريم يفرح بتوبة عبده،فتب يفرح ربك،ويسعد بك نبيك،وتبيض صحيفتك،وتعلو درجتك،وتهنأ بالعيش في روضات الجنات،بصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

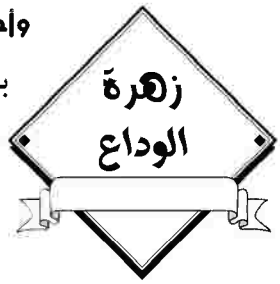

وأخيرا وقبل الوداع،يحلو لي أخي أن أتركك تعيش مع **الفضيل بن عياض** في هذا الخبر الذي يفيض رقة ويقطر عذوبة، ويوضح فضل المولى على عباده،وكرم الخالق سبحانه على خلقه وأخص بالذكر العصاة والمذنبين يقول الفضيل رحمه الله : ما من ليلة اختلط ظلامها،وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم مني جودا ؟ والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب،أكلؤهم في مضاجعهم،وكأنهم لم يعصون،وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم،أجود بالفضل على العاصي،وأتفضل على المسئ،من ذا الذي دعاني فلم ألبه ؟ أمن ذا الذي سألني فلم أعطه ؟ أمن ذا الذي أناخ ببابي فنحيته ؟ أنا الفضل ومني الفضل،أنا الجود ومني الجود،أنا الكريم ومني الكرم،ومن كرمي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي،ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني،وأعطيه ما لم يسألني،ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني فأين عني يهرب الخلائق ؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟ .

الله أكبر أسمعت أخي هذا الكلام ؟ ألم يخشع له قلبك ؟ ألم تستكن له نفسك ؟ والله إن الحجر ليذوب حياءا من الخلاق العليم والمنعم الكريم حين يسمع هذا الكلام . فيا غافلا في بطالته،لا يفيق من سكرته،أين ندمك على ذنوبك ؟ و أين بكاؤك على عيوبك ؟ إلى متى تؤذي بالذنب نفسك،وتضيع يومك كما أضعت أمسك ؟ لا مع الصادقين لك قدم،ولا مع التائبين لك ندم ؟ هلا بسطت في الدجى يدا سائلة،وأجريت في السحر دموعا سائلة ؟.

أخي نحن الآن على باب الروضة نوشك أن نغادر،فجاءنا صوت ملائكي من خلفنا يهتف :

كريم إذا يممت بالصـــدق بابـــه فإنك لا تلقى على الباب حاجبا

وإن كنت ذا ذنب فتب منه واعتذر كأنـــك لم تذنب إذا جئـت تائبا

فلما سمعناه طربنا وانتشينا وتواعدنا على مواصلة الرحلة فكانت الروضة التي تليها.